

سلسلة

منهجيات قرآنية للمجالس الرمضانية

(المجموعة الثانية)

٣٠ آية في ٣٠ جلسة



تأملات:

أ. د. فخر الدين بن الزبير المحسي

كلية الدراسات القضائية والأنظمة

جامعة أم القرى - مكة المكرمة




بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فهذه هي المجموعة الثانية من هذه السلسلة، والتي تحوي جملة من التأملات العلمية، والوعظية، المناسبة للحلقات التدبرية، وأفضل أوقاتها شهر رمضان، الذي أنزل فيه القرآن؛ لذلك قسمت كل مجموعة إلىٰ ثلاثين آية.

وهي كما سبق جاءت بأخصر العبارات، حول مختلف الموضوعات، في كليات؛ فسميت بالمنهجيات، مع تنوع في الآيات، أردتها كالحديقة الغناء بأفنانها، فلا يخرج مرتادها إلا بخيراتها، من قطف ثمارها، أو استنشاق أزهارها، أو الاستظلال بدايحها، أو التنسم بنسماتها.

وتتبعها إن شاء الله بقية المجموعات، أسأل الله تعالىٰ أن ينفع بها في الدنيا والآخرة.



١- صبر الدعاة

قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾[غافر: ٥٥]

هذه الآية العظيمة تنتظم توجيهات دقيقة للمسلمين عموما، وللدعاة إلى الله تعالى خصوصا، ومنها:

١- ضرورة الصبر في الدعوة، بمعالمه الثلاثة: الصبر على المأمورات بالتزامها، والمهنيات باجتنابها، والمقدورات بالرضا بها.

٢- من سنن الله تعالى أن الابتلاءات تعترض الدعاة، فلابد من التطاوع معها.

٣- تذكرُ الآخرةِ على الدوام مما يعين على الصبر، ويهون البلاء.

٤- التحقق باليقين على وعد الله تعالى بنصر دينه، وحسن الثقة به.

٥- من أهم أسباب الثبات: ملازمة ذكر الله تعالى.

٦- أن النقص أصل في البشر، والدعوة مظنة للخطأ والتقصير.

٧- أهميـــة الاســـتغفار للداعيـــة؛ لجـــبر مـــا كان منقوصـــًا، وإصـــلاح مـــا كان منقوضـــًا.

٨- الحـــض علىٰ كثرة التســـبيح، الـــذي يقوي عزمـــه، ويربط علـــىٰ قلبه.

٩- جوامـــع الذكر في الاســـتغفار والتســـبيح لمـــا فيهما من التخليـــة والتحلية.

١٠- التأكيـــد علـــىٰ أذكار الصبـــاح والمســـاء، التـــي تعلقـــه بخالقـــه، وتكفيـــه شـــر خلقه.

وغيرها من عيون العظات.



٢- كمثل الكلب

قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ﴾

هـذا المثـل القرآني من أكثـر الأمثال تشـنيعا وتبشـيعا، فيمن كان هـذا حالـه، ممن تعلـم الآيـات، وتَبيّن ما فيها مـن عظات، ثم آثر عليها الشـهوات، من لـذة عارضة، ودنيا عابـرة، فعاوضها بصفقة زهيدة خاسـرة.

فشـبهه الله تعالـىٰ بالكلـب، ووجـوه الشـبه بينهمـا بديعـة، والصـورة بيـن الحالتيـن فظيعـة، ومـن ذلك:

- خسـة الكلـب، وتشـممه لـلأرض، وتتبعه للدنايـا، كحال هـذا الذي يسـتبدل الـذي هو أدنـىٰ بالذي هـو أعلىٰ.
- لهثه في كل حال، في جوعه وشـبعه، وريه وعطشـه، لا يدخل لسـانه في جوفه، كهذا اللاهـث وراء نزواته، في جميع تصرفاته.
- ذلتـه لمن يطعمه، فهو أسـير للقيماته، مسـترق بفتاته، كهذا الذي يبيع دينـه بملذاته.

- كثـرة نباحـه وعويله، وعدم التفـات الناس لـه، كهذا الذي ينعـق بما لا يُلتفـت إليه؛ حيث سـقطت هيبته، ونزعـت بركته.

- اسـتخباث الكلـب، ونجاسـة ولوغـه، وتقذّر الطبـاع منه، كهـذا الذي نفـرت منه الفطـر السـليمة؛ لتقلبـه وتناقضه.

إلىٰ وجوه كثيرة، تعيها القلوب المستنيرة.



٣- الربانيون

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾:

هذه الآيـة من أعظم الآيـات المنهجيـة، التي ترسـم الطريق لمـن أراد بلـوغ الرتبـة العلميـة، بوجههـا، مـع ظهـور أثرها، وحصـول أجرهـا، من خـلال المعالـم الآتية:

- العلمـاء ورثة الأنبيـاء، والأنبياء مربّـون لأقوامهم، فكذلك العلمـاء بحق هم المربّـون لغيرهم.
- نهضـة الأمـة بالتربيـة العلميـة، لا بغيرهـا من الأسـاليب الوقتيـة، والعلاجـات الموضعيـة.
- كل علـم تربـوي لابـد أن يصـدر عـن الكتـاب الكريـم، والوحـي العظيـم.
- العلـم الحقيقـي مـا أثمـر حِكمـة وخُلقـاً وعمـلاً، فهذه الحقيقـة التكامليـة للربانية.
- لا يسـتغني العالـم عـن زيـادة العلـم ودراسـته، مهما بلغ علمـه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.

- زكاة العلم بتعليمه، ومحقه في كتمه: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ .

- التعلم والتعليم سبب للربانية، فلا يكون المسلم ربانيًا إلا بالعلم والتعليم.

- قدم التعليم مع أنه لا يكون إلا بعد الدراسة؛ دلالة علىٰ أهميته، ولأنه من ثمرته.

- العلم والتعليم وظيفة مستمرة لا تنقطع؛ لذلك عبر عنهما بالمضارع، فهي أجيال متعاقبة، وبحاجة إلىٰ معاهدة ومتابعة.



٤- يوم المرأة

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ﴾

هـذه الآيـة تحكي صـورة قاتمـة مـن صفحـات الجاهلية، والتـي لا تزال لوثاتهـا في بعض القلوب، فكان يوم ولادتها تسـود فيه الوجوه، كأنما بشـر النـاس بمكروه، حتىٰ دوّت في الأسـماع آيـاتُ رفعتِها، فأصبحت في الإسـلام جوهـرة مصونة في صدفتها، قبل ولادتهـا، إلىٰ ما بعـد وفاتها:

١- قبـل ولادتهـا؛ حيـث بدأ بهـا في قوله تعالـىٰ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾.

٢- عنـد ولادتها؛ حين قـال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: (لا تكرهوا البنات فإنهن المؤنسات الغاليات).

٣- في صغرهـا: كمـا في حديث: (مـن كانت له ثـلاث بنات فصـبر عليهن وسـقاهن وكسـاهن كن لـه حجابًا مـن النار).

٤- مـع أخيهـا: كمـا في حديـث: (مـن كان له ثـلاث بنات أو ثلاث أخـوات أو ابنتان أو أختان فأحسـن صحبتهن واتقىٰ الله فيهن فلـه الجنة).

٥- فإن لم يكن لها قريب: حض عموم المسلمين على إعالتها، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَن عالَ جارِيَتَيْنِ حتَّى تَبْلُغا، جاءَ يَومَ القِيامَةِ أنا وهو، وضَمَّ أصابِعَهُ).

٦- قبل نكاحها: كما في الأحاديث السابقة: (فأدبهن وأحسن إليهن وزوجهن)، وقال: (لا تنكح البكر حتى تستأذن).

٧- مع زوجها: كما قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وهي وصية حجة الوداع: (استوصوا بالنساء خيرا)، وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (خيركم خيركم لأهله).

٨- في أمومتها: وفيه من أعظم التكريم في القرآن الكريم: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾.

٩- حال كبرها: كما قال تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

١٠- بعد موتها: كما في حديث البر بعد موت الوالدين: (الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، من بعدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما).

١١- بل شمل البر أخواتها، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الخالة بمنزلة الأم).

١٢- وفي جميع التكاليف والحقوق: قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (النساء شقائق الرجال)، إلا ما يناسب أنوثتها وخلقتها فخفف عنها .

فلا يزايد أحد علىٰ إكرامها في الإسلام، فليت الأدعياء يعلمون قدرها في هذه النصوص الغراء، حقيقة لا ادعاء، وحفظا لها لا إغواء، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾.

وتنصيف الدية والميراث في بعض الحالات؛ مقابل كامل النفقة لها، وعدم مطالبتها بها، وتنصيف الشهادة في بعض القضايا مراعاة لرقة طبعها، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.



٥- تكامل المسيرة

قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾.

تتضمــن هذه الآيــة عيــون التوجيهات، وفائــق الإضاءات، في مســيرة الدعاة، وســائر العلاقــات، ومن ذلك:-

١- الدعــاء مــن أهــم ذخائــر الدعــاة والصِّــلات التي تجب ملازمتها.

٢- التأكيــد علــىٰ الاجتمــاع في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، وســائر المصالح.

٣- من الصدق مع الله وخلقه: الاعتراف بمواطن الضعف.

٤- أهمية الفصاحة والبيان، بعد الإيمان وقوة البرهان.

٥- الفصاحة ليست ميزانا للتفاضل، ولا دليلاً علىٰ العلم.

٦- ضرورة توزيع المهام والتكامل، دون الاستئثار والتآكل.

٧- لا يستوفي الداعية الكمالات، مهما بلغت مكانته.

٨- ذكــر مــا عنــد أخيــك مــن المــكارم: هــو مــن الصفاء والإنصــاف.

٩- وجوب اتخاذ الأسباب، في الأمور الدينية والدنيوية.

١٠- من أكبر المنن: إشراك الآخرين في جلائل أعمالك.

١١- من التوفيق في الدعوة والعمل: اختيار من يناسب كل تكليف .

١٢- من حكمة الدعوة: النظر في المآلات؛ للإعداد لها.

١٣- لا يستغني الداعية عن أخ معين، بحجة التأهل أو التوكل.

١٤- توقع التكذيب: لا يبرر ترك الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ.

وغيرها من معالم المسيرة الإيمانية.



٦- رضا الناس

قوله تعالىٰ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾

تصور الآية العظيمة صفة نفاقية، يتلبس بها البعض، وهي ابتغاء رضى الناس بسخط الله العظيم، وتقديم أهوائهم على الوحي الكريم، وقد بين البشير النذير عاقبة هذه الصفة؛ ترهيباً منها، وترغيباً في ضدها، فقال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (من أرضىٰ الناس بسخط الله: سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس، ومن أرضىٰ الله بسخط الناس: رضي الله عليه، وأرضىٰ عليه الناس)!

وهي حقيقة ظاهرة، تبصرها الأعين الناظرة، فكم من الدعاة الذين ابتغوا رضىٰ الله، وآثروه علىٰ مرغوبات الناس، فعاداهم قومهم، ونفروا منهم، وصدوا عنهم، ثم كانت العاقبة إقبالَهم عليهم، وإحسانَهم إليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾.

وبالمقابل: كم ممن آثر مراضي البشر، علىٰ مقام ربه، وطاعة أمره، واجتناب نهيه، برد النصوص وتحريفها: فكان

مآله إلى سفال، وانقلب أنصاره أعداء، واستحال ثناؤهم ازدراء.

وقلب نظرك من حولك، تزدد يقينا بكلام ربك.



٧- رد الشبهات

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾

الجدال لإظهار الحق، وإحسان التفسير للخلق: لابد فيه من محاورة تنتظم رباعية الحجج العلمية، دون المهاترات الوهمية، وهي:

١- الأدلة النقلية: وبيان كفايتها في الاهتداء: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

٢- البراهين العقلية: وتأكيد موافقتها للشرع: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿لِّذِي حِجْرٍ﴾ ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾.

٣- الحقائق الواقعية: للتفكر فيما يقع في الأرض: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾.

٤- الوثائق التاريخية: حيث الاعتبار بها، والاستنباط منها: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾.

وأعظم تفسير للحق ما أحاط بهذه الأربع؛ حيث تأتي علىٰ الباطل من أصله، وتجتثه من جذره: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾.



٨- غيرة الله تعالى

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾

هذه الآية الكريمة التي تأخذ بمجامع القلوب؛ لتترقىٰ في مدارج التعظيم لله تعالىٰ، وهو يدعو خلقه للطهر حسا ومعنىٰ؛ رحمة بهم، وإصلاحا لحالهم، وإرساء لدعائم الفضائل، وقطعا للطريق أمام المنكرات، وتجفيفا لكل قيعة آسنة تصب في الرذائل.

في مقابل أصحاب الشهوات الذين اجتمعوا من أقطارها؛ لغواية النفس وإهلاكها، وتفننوا في إشاعة الفواحش، ووأد العفاف، واستئصال الفضيلة، عبر دعايات فاجرة، ومرئيات عاهرة، تعج بها الأرض، حتىٰ كأن حديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ شاهد عيانا بين أظهرنا، وهو يقول: (لا تقومُ السَّاعةُ حتَّىٰ يتسافَدوا في الطَّريقِ تسافُدَ الحميرِ)، فما أحلم الله بجرأة عباده، وما أصبره علىٰ انتهاكهم حرماته، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: (يا أمة محمد لا أحد أغير من الله من أن تزني أمته أو يزني عبده)،

وقال: (أَتَعْجَبُونَ مِن غَيْرَةِ سَعْدٍ، فَوَاللهِ لأَنَا أَغْيَرُ منه، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي، مِن أَجْلِ غَيْرَةِ اللهِ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ، ما ظَهَرَ منها، وَما بَطَنَ)؟!

فإياك أن تنحاز إلىٰ حزب تجار الشهوات، فتروج لأسواقهم، وتستمتع بمعروضاتهم، وبئست التجارة، التي لن تجني منها إلا الحسرة والخسارة.



٩- أسئلة الوجود الكبرى

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

هـذه الآية العظيمـة مع قلـة ألفاظها إلا أنها تلخص الأسـئلة الكـبرىٰ للوجود، والتـي تخبط النـاس حولها، من جـواب عبد مؤمـن لم يقـص الله تعالىٰ لنا مـن خبره إلا هـذه العبرة.

وفي ذلـك إشـارة إلىٰ أنهـا جبلـة إنسـانية، ومقالـة فطرية، لا تختص به؛ فلم تكن أهمية لمعرفته بعينه.

والأسـئلة الثلاثـة التـي تـدور في أذهان البشـر، وتسـتقر في دواخلهـم، هي:

١- من خلقنا ؟! وهو سؤال الماضي.

٢- ولماذا خُلقنا ؟! وهو الحاضر.

٣- وما مصيرنا ؟! وهو المستقبل.

فحكـىٰ الله تعالىٰ الجواب مـن العبد المؤمن، محدداً بسـجية رقيقة، وجامعـا ببديهة دقيقة، فقـال ما مفاده:

الذي فطرني هو الله.

وما خلقني إلا لعبادته.

ومصيرنا الرجوع إليه.

لكن السبك القرآني والاتقان البلاغي بدأ بالعبادة؛ لأنها موضع التلكؤ والنفور، ومحك ظهور السؤالين بعده:

- فمن أخل بأحد الجوابين لم يتمخض الأثر تعبداً؛ إما لجهله بخالقه، أو لشكه بمعاده.

- ومن عرف خالقه، وآمن برجوعه إليه: عبده لا محالة؛ لزوماً لإقراره.

- فإذا أحكم الثلاثة: استقامت حياته، وسكنت روحه، وارتاح عقله، واطمأن قلبه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.



١٠- وحدة الأنبياء

قال تعالىٰ: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾

هذه الآية العظيمة رسالة لجميع أصحاب الديانات، وفيها تأصيل للإيمان الإسلامي الذي خاطب الله تعالىٰ به الإنسان، فالمسلم يؤمن بجميع ما جاءت به الرسالات السماوية، وهو أصول الاستسلام لله تعالىٰ بالتوحيد والعبادة، وإن تنوعت بعض صور القربات.

ولذلك لا تجد مسلمًا علىٰ وجه الأرض ينتقص نبيا من الأنبياء، فضلًا عن أن يجحد رسالته، وإنما خلافهم مع من حرف كتب الرسل، وناقض رسالتهم، وكفر ببعضهم، وآخرهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي بشر برسالته جميع الأنبياء قبله، وجاء مصدقًا بما جاؤوا به من عبادة الله تعالىٰ ومكارم الأخلاق، وزاد عليهم تفاصيل الأحكام في جميع جوانب الحياة؛ لخلود شريعته، وشمولها لجميع الأزمنة والأمكنة.

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.



١١- الحجر الصحي

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾

هذه الآية العظيمة أصل في منع الفساد، والحد من انتشاره، وقد استنبط منها الإمام القرطبي: جواز اتخاذ السجون.

وفي هذه الأيام حيث الكلام حول التأصيل للتعامل مع الأوبئة يمكن استنباط حكم النازلة من الآية: وهو مشروعية: (الحجر الصحي)؛ بدلالة القياس المكتمل الأركان:

١- فالأصل المنصوص: الحجر علىٰ يأجوج ومأجوج بالسد؛ لمنع فسادهم.

٢- والفرع المستنبط: الحجر الصحي؛ لمنع انتشار الأمراض.

٣- والعلة الجامعة بينهما: دفع الضرر العام.

٤- والحُكم: مشروعية الحجر.

وله دلائل من الأحاديث كذلك، وهذا كله داخل تحت أصل عظيم، وهو: سد الذرائع، الذي دل علىٰ حجيته أكثر

من مائة نص من الكتاب والسنة، وصدق الله القائل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.



١٢- لم يلد

قوله تعالىٰ: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾

هذه الآيات العظيمة وما قبلها وما بعدها: مما تنخلع لها القلوب المعظمة لعلام الغيوب.

فهي تفيد استحالة اتخاذ الرحمن الغني الملك الكبير المتعال لولد من البشر عبد فقير صغير لا يعد شيئا في مقياس الزمان والمكان!

وتأمل في قول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: (ما السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم) «الطبري».

فهذه السماوات والأرض المسبحة بحمده، والخاضعة لمجده: لا قدر لها عند ربها، فأين تلك الذرة التي تسمىٰ بالإنسان مع هذا الملكوت العظيم!

فالذين ينسبون الولد لله سبحانه لا يؤمنون بالله تعالى، ولا يعرفون عظمته، ولذلك ساغ لهم إظهار هذا الكفر برسم صورة ربهم الذي يعتقدونه في صدورهم!

وكل من يسوغ عقيدتهم فقد شابههم في عدم تعظيمهم لله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.



١٣- الألد الخصم

قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾

في هــذه الآيــة العظيمــة ختــم لصفــات المفســدين بخصلة شــنيعة، وهي اللدد والخصومـة، وقد وصف الله بها المشــركين، فقــال: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾، وبيــن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شــرها، فقــال: (إنَّ أَبْغَــضَ الرِّجَالِ إلــىٰ اللهِ الأَلَــدُّ الخَصِمُ).

وأســجل هنا أســفي علىٰ تسللها إلىٰ الســاحة الدعوية، حيث الخصومات والمجادلات، عبر الشــبكات!

فيظــن أغرارهم أنه بمقــدار اللجاجة والمماحلة في كل شــيء تكون نصــرة الدين!

ويذكي نار ذلكم الوهم كثرة المصفقين وأعداد المتابعين!

وما هو إلا قلة فقه، وتزيين من الشياطين!

فهــذا رســول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمــا قــال لــه علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (إنَّمــا أنْفُسُــنَا بيَــدِ اللهِ، فَإذَا شَــاءَ أنْ يَبْعَثَنَــا بَعَثَنَــا): انصرف وهو يَضْــرِبُ فَخِــذَهُ، ويقــولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾، ولــم يخاصمــه مع حجتــه، وتأييــد الوحي لــه؛ فالاســتقصاء في تفاصيــل الأشــياء ليس مــن شــيم العقلاء!

لذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَنا زَعِيمٌ بِبَيتٍ في رَبَضِ الجنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا)، وقال الإمام مالك: (المراء يقسّي القلوب، ويُورث الضغائن)، وقال: (ليس هذا الجدل من الدين بشيء)، وقال بلال بن سعد: (إذا رأيت الرجل لجوجًا مماريًا معجبًا برأيه فقد تمت خسارته)، وقال ابن شبرمة: (من بالغ في الخصومة أثم، ومن قصر فيها خُصِم)، وقال محمد بن الحسين: (من صفة الجاهل: الجدل، والمراء، والمغالبة)، وقال الحسن: (ما رأينا فقيهًا يماري)، وقال عبدالكريم الجزري: (ما خاصم ورع قط)، ويتوج ذلك كله قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ما ضَلَّ قومٌ بعدَ هُدًى كانوا عليهِ إلَّا أوتوا الجدَلَ، ثمَّ تلا هذهِ الآيةَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

والحديث ذو شجون!



١٤- أفتؤمنون ببعض الكتاب

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

كلما قرأت هذه الآية تذكرت عقيدة إحدىٰ الطوائف المنحرفة!

التي يزعم فيها هالكهم بأنه يعمل بالقرآن المكي، دون القرآن المدني!

فما أشبهه باليهود، الذين تآمروا علىٰ المسلمين؛ ليصدوهم عن قرآنهم، ويلبسوا عليهم دينهم؛ فأولئك قسموا إيمانهم بأول اليوم دون آخره.

- وهؤلاء قسموه بأول القرآن دون آخره: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾!

وما أعظم البون الشاسع بين هذا التقرير وبين قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، فهذه الآية العظيمة من أواخر ما نزل علىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع؛ لبين لأمته أن هذا الدين الكامل

هو الإسـلام الذي لا يرضىٰ الله تعالىٰ عـن غيره: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

فمـا لـم يكن مـن الدين علـىٰ عهده: فليـس بديـن لمن جاء مـن بعده.



١٥- التنافس والتكاثر

قوله تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾

آية عظيمة تطوى مجلدات دون تجلية أسرارها، محاطة بسياج البلاغة في صياغة حال البشر مع زخارف الدنيا العارضة.

واليوم مع تقلب الأحداث، وتسارعها: ينبغي أن يكون اللبيب المتدبر لها قد عافت نفسه بهرجها، وغضت طرفها عن رتبها، ولم تعد الأماني إلا بلغة لآخرتها، وقد استوى فيها العَجب مع الرويس، والبقل مع الميس، واختلطت معاييرها اختلاط الحيس!!!

وغدا رائق ما يُتمثل به قول فيلسوف الشعراء المعرّي:

غَيْرُ مُجْدٍ في مِلّتي واعْتِقادي ... نَوْحُ باكٍ ولا تَرَنّمُ شادِ

وشَبِيهٌ صَوْتُ النّعيّ إذا قِيـ ... ـسَ بِصَوْتِ البَشيرِ في كلّ نادِ

أبَكَتْ تِلْكُمُ الحَمَامَةُ أمْ غَنْـ ... ـنَتْ عَلى فَرْعِ غُصْنِها المَيّادِ

فغاية ما فيها أن سرّاءها بريد الشكر، وضرّاءها بريد الصبر.

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾!



١٦- صور الابتلاءات

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾

لا شك أن المؤمن يتألم للمشاهد الفظيعة، والجرائم الشنيعة -مما ينشر ويبث من تعرض بعض المسلمين لصنوف التقتيل والتنكيل- فيحجم قلبه عن تذكره، فضلاً عن مشاهدته أو ذكره، فتقض مضاجعه، وتؤرق مهاجعه، لكن مما يواسيه في تلك الكربات، ويقلل من الحسرات: أن يقف مع هذه المقامات:

١- مقام القدر: فكل ذلك قدره الله تعالىٰ بين فضله وعدله؛ لذلك لما طعن عمر قرأ: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾، وكان ابن النابلسي يسلخه الباطنية وهو يقرأ: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾.

٢- مقام الرحمة: فرحمة الله تعالىٰ بهم أعظم من رحمتنا، فالشهيد لا يجد من القتل إلا كأثر القرصة، ونحسبهم كذلك.

٣- مقام الدعاء: بأن نخلص لهم في الدعاء بأن يتقبلهم الله في الشهداء، ويعافينا وذويهم من البلاء.

٤- مقام المواساة: وأقلها المواساة القلبية، فالمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

٥- مقام الأجل: وأننا جميعا ميتون، ولأن تموت لله ودينه خير من أن تموت بغتة في غفلة.

٦- مقام الآخرة: وأن البلاء سبب لرفع الدرجات، حتى يغبط أهل البلاء في العرصات؛ لما لهم من الكرامات.

٧- مقام العدل: وأن كل مظلوم سيقتص له في يوم القسط، ولن يفلت الظالم قط.

٨- مقام المنة: حيث امتن الله عليك بأن هداك لهذا الدين الذي بذلت فيه الأنفس والأموال، وجاءك وأنت في أحسن الأحوال.

٩- مقام الشكر: فأنت في عافية وأمان في دينك ودنياك، لم يصبك ما أصابهم هناك، فتنشط في عبادة مولاك.

١٠- مقام الصبر: وأنه مهما وقع عليك بلاء ولأواء: فليس كالذي تراه، فتزداد صبرا واحتسابا.

١١- مقام الوجل: فتتهم عملك، وتهضم نفسك، وتتواضع لربك، وأنت لم تقدم له ما قدمه غيرك.

١٢- مقام التفاؤل: فإن مع العسر يسرا، وإن مع الصبر فرجا، وإن بعد البلاء نصرا، والعاقبة للمتقين، والتمكين لهذا الدين، مهما طال ليل الظالمين.



١٧- تزيين الأعمال

قوله تعالىٰ: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

تصور هذه الآية حالة مرضية، تستوجب العذاب، وهي تزيين الأعمال، والتشبع بما لم يعط من الخصال، وقد استوقفني كثيرا حديث أبي موسىٰ الأشعري -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- في الصحيحين:

بعد أن ذكر غزوة ذات الرقاع، وقد نقبت أقدامهم، وسقطت أظفارهم، ولفوا الخرق علىٰ أرجلهم.

- قال أبو بردة: (فحدث أبو موسىٰ بهذا الحديث، ثم كره ذلك؛ كأنه يكون شيئا من عمله أفشاه)!!!

فحزنت وأنا أقارن حالنا بحاله: من إفشاء الأعمال ونشرها، بل تزيينها وزخرفتها، فضلا عن تضخيمها، والتشبع بالزيادة عليها .

وحينها: علمت أنه من أول أسباب نزع البركة، وضعف الأمة، وهو ما وصفه ابن مسعود- رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- بقوله: (والتمست الدنيا بعمل الآخرة)!!!

فاللهم أعذنا من شرور أنفسنا.



١٨- شهرة الحق لا الخلق

قوله تعالىٰ: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾.

تبين الآية أن مقصود الشرع -أصالة- شهرة الحق، لا شهرة الخلق، ولا تلازم بينهما، وإلا لشرّف بها جِلة الأنبياء والمرسلين؛ حيث لم يذكر أسماء كثيرين، بل يأتي بعضهم وليس له أي تابعين، كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ويأتي النبي وليس معه أحد).

ومع طفرة التنافس الإعلامي، حتىٰ بين خاصة القائمين بأعمال الآخرة:

كأني بأثر عجيب لصحابي لبيب، يتخلل وسائل التواصل تخلل القطر.

كلما تأملت فيه: ازددت يقيناً بصدق هذه الرسالة، التي تتجدد -كل لحظة- تجلياتها الحسية، فضلاً عن دلائلها العقلية، وحقائقها الفطرية.

وهو قول معاذ -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-: (وَيُفْتَحُ الْقُرْآنُ، حَتَّىٰ يَأْخُذَهُ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ وَالْحُرُّ وَالْعَبْدُ، وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، فَيُوشِكُ

الرَّجُـلُ أَنْ يَقْـرَأَ الْقُـرْآنَ فِي ذَلِـكَ الزَّمَـانِ فَيَقُولُ: مَا بَـالُ النَّاسِ لا يَتَّبِعُونِـي وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُـرْآنَ، فَيَقُولُ: مَا هُمْ بِمُتَّبِعِـيَّ حَتَّىٰ أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْـرَهُ، فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتَدَعَ، فَإِنَّمَـا ابْتَدَعَ ضَلالَةً):

- فهـذا الأثر في حكـم المرفـوع، ويحكي حالة السـعار نحو الشـهرة، واللهـث لتكثير المتابعـة والحظوة، في أواخـر الأزمنة، حتىٰ بيـن الصفوة.

فغـدا أقـوام صرعـىٰ الإثـارة بمـا لـم يَسـبق إليـه إنس ولا جان، ولو كان ممقوتـًا شـرعـًا، وممجوجـًا طبعـًا، فيظفر بفعلة ترفع أسـهم نشوته.

ثم سـرعان ما يمـوت ذكره، وتخبو نـاره، فيعيـد الكرة بنفخ رمـاده؛ لإحيـاء مواته، في سلسـلة مأفونـة، من أمـراض مدفونة، غيبـت كثيـراً من العقـول، واسـترقّتها بأرقام لا يُعـرف جوهرُها ومخبرُها، بـل حتىٰ لا يُـدرىٰ مظهرُها.



١٩- وظيفة السمع والبصر

قوله تعالىٰ: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴾

هذه الآية العظيمة لها معنيان بديعان، ووجهان جامعان:

الأول: أن مضاعفة العذاب بسبب عدم سمعهم، وعدم إبصارهم، وفيها دلالة عظيمة علىٰ أن الأسماع والأبصار: إنما جعلت للعظة والاعتبار، فمن لم يسخرها في حقها: فكأنه سُلبها، كما قال تعالىٰ عن المشركين: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

الثاني: أن مضاعفة العذاب بما كانوا يستطيعون من السمع فلم يعملوا بمقتضاه، وبما كانوا يبصرون فلم يتبعوا هداه، وفيها دلالة علىٰ أن النعم السابغة هي حجة بالغة، كما قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

فتحصل من ذلك أن النعم يجب بذلها في شكر واهبها، وإلا كانت وبالا علىٰ صاحبها!

٢٠- بغي العلم

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾

الآية تبين داء خطيرا، وشرا مستطيرا، يفرزه العلم المجرد، فهي تحكي عن اليهود أنهم ما تفرقوا ولا بغوا إلا بالعلم، وفيها من منارات الطريق للمتعلمين ما يلي:

١- أن العلم وحده لا ينجي صاحبه من الضلال، ما لم يحطه بالإيمان.

٢- أن اليهود يعلمون الحق، ومنه صدق النبوة، لكنهم جحدوه وتنكروه.

٣- أن من انحرف من العلماء، وتنكب الحق مع معرفته: ففيه شبه باليهود.

٤- أن العلم إذا لم يطهّر صاحبَه ففيه هلاكه في الدنيا قبل الآخرة، كما نرى من التدمير والفتك بعلوم العصر.

٥- أن العلم سبب للبغي والتحاسد، والتكبر والتنازع، إن لم يلجم بالتقوى.

٦- أن كل علـم يـؤدي إلىٰ الشـقاق: فهو مدخـول إما بخلل معرفي، أو هـوىٰ قلبي.

٧- أن التركيـز علـىٰ العلم، مع إهـدار تربية النفـس، وتزكية الـروح: مآله إلـىٰ البغي.

٨- أن سـبيل تحقيـق مقاصد العلم هو اتباع مـا جاء في الوحي قولاً وعملاً.

٩- أن العلـم الصحيـح: هـو الذي يـؤدي إلىٰ قلب خاشـع، وعمـل صالح، ودعـاء نافع.

١٠- أن كل مـن طلـب العلم ووجد في قلبه قسـوة، وفي عمله جفـوة، وفي لسـانه سـطوة: فعلمـه لا ينفع، وليسـتعذ بـالله منه، كما استعاذ منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



٢١- التباس الحق بالباطل

قوله تعالىٰ: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

بينت الآيـة أن جميـع محاولات الصـد عن الحـق لا تخرج عـن طريقتين:

الأولىٰ: إثارة الشـبهات حوله، حتىٰ يختلـط بالباطل، ويلتبس علىٰ الجاهل.

الثانيـة: كتمه، والتعميـة عليه، وعدم إظهار محاسـنه، ومعالم مناقبه.

والطريقة الأولىٰ أخطر وأشـهر، ولعله السـر في البدء بها؛ لأنها تفتقـر إلىٰ معرفـة الحـق بدلائله، والخـبرة بوسـائل المحاورة، والدربة علىٰ مناهـج المناظرة.

فداعية الحق لابد أن يجمع في دعوته ما يدفع الأمرين:

- فيقرر الحق بتفاصيله وملابساته.
- ويرد الباطل بشبهاته وتشغيباته وتلبيساته.

وهو مقتضـىٰ قوله تعالـىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

فتأمل الجمع بين تفصيل الآيات بالحق المبين، واستبانة طريق المجرمين؛ لكشف كيدهم، ورد باطلهم: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾.



٢٢- مراتب الجهاد

قوله تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾

الجهاد علىٰ أربع مراتب، كما يلي:

١- جهاد القلب: وهو جهاد النفس والشيطان، والتحلي بحقائق الإيمان.

٢- جهاد اللسان: بالعلم والدعوة والبرهان.

٣- جهاد الجوارح: بالعبادة والإصلاح والإحسان.

٤- جهاد الغزو: بالسيف والسنان.

وأعظمها مرتبة جهاد القلب؛ لأنه يولّد ما بعده؛ لذلك قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: (المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله)، وذروة سنامها الأخير؛ لأنه يبنىٰ علىٰ ما قبله، ووسيلة لتحقيقه، كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: (وذروة سنامه الجهاد).

وبناء عليه كان جهاد العلم أفضلَ من جهاد الغزو؛ لأنه غاية مقصودة لذاتها، بينما الغزو وسيلة لإظهار الحق، فإن ظهر بالعلم لم يلزم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾، أي بالقرآن والعلم.

٢٣- سُباعية الإلحاد

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكࣱّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

يمكننا تلخيص الوسائل المفضية للإلحاد السلبي -غير الفلسفي- بين الشباب المسلم فيما يلي:

١- التشكيك في السنة: ومن ثم لابد من التركيز علىٰ الصناعة الحديثية والنقدية التي حُفظت بها السنة.

٢- التشكيك في الثوابت الإجماعية: فينبغي التأكيد علىٰ اتباع سبيل المؤمنين فيما أجمعوا عليه من مباحث الدين.

٣- التشكيك في العلوم المساندة: كالقواعد والأصول ونحوها، مما يعتبر سياجا منيعا ضد التلاعب بالنصوص.

٤- التشكيك في الرموز الشرعية: كالصحابة ومن بعدهم، فالواجب إبرازهم، وإيجاد قدوات معاصرة تصل السابق باللاحق.

٥- كثرة الشهوات والإباحية: فهي بريد الانسلاخ من التدين، فمن الضروري خلق محاضن تخفف من وطأتها.

٦- وجــود نماذج مشــوهة للإســلام: أفــراداً أو مجموعات، أو أفكاراً وشبهات، مما يستدعي ردها، وتنزيه الشريعة عنها.

٧- الاغــترار بالغرب: والانهزامية النفســية أمــام بعض الصور الحضاريــة، والنظريــات البشــرية، ونســيان السّــجل الدمــوي، والملــف الاســتعماري القمعي، والإفــلاس القيمي.

فإن نُزحت هــذه القيع الآســنة، وقطع الطريق المــؤدي إليها، وســدّت القنوات التي تصــب فيها: جفت مســتنقعات الإلحاد.

والله الهادي للرشاد.



٢٤- فتنة الخائضين

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

أعجب ممن هِجّيراهُ: تكرار قوله جلّ في علاهُ: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثم تجده يخوض باسم الدين في كل واردة، وله سهم حكمي مع كل شاردة!

فتراه:

- مجتهداً مستقلاً !
- ومحللاً سياسيًا !
- وخبيراً اقتصاديًا !
- ومستشاراً قانونيًا !
- ومنظّراً عسكريًا !
- وطبيبًا أخصائيًا !
- وراصداً فلكيًا !
- ومعلقًا رياضيًا !
- ومشرفًا إداريًا ! و...و...

على رسلك أيها الداعية، ترفّق بنفسك سرّاً وعلانية!

ولا تقتحم مالك مندوحة عنه، وأنت في بحبوحة منه!

(فمن حسن إسلام المرء: تركه ما لا يعنيه).

وإلا دخلت مأزقاً يضطرك للمثولِ أمام قول الرسولِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (وإياك وَمِمَّا يُعتذر منه).

والجناية حينئذ ليست عليك خاصة، وإنما على ما تدعو إليه عامة.

وتذكر تحذيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصد عن هديه، بقوله: (إن منكم لمنفرين).



٢٥- التحذير من التكفير

قوله تعالىٰ: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾

آية عظيمة للشريعة الرحيمة، التي تلامس القلوب بأحكامها الحانية، يبين الله تعالىٰ فيها رفع الآصار عن عباده؛ بذكر مانع من الكفر، وهي في جملتها ثلاثة موانع:

١- مانع الإكراه: كما في نص الآية، وعضدتها السنة في مواضع معلومة.

٢- مانع الجهل: كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ ...﴾؛ فعلق العقوبة علىٰ تبين الهدىٰ، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾.

٣- مانع الخطأ: كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ ﴾، والخطأ نوعان:

الأول: الخطأ في الفهم، وهو التأويل بشبهة؛ كما في قصة قدامة بن مظعون الذي استحل الخمر تأويلاً.

الثاني: الخطأ في القصد، وله ثلاثة أسباب:

١) الإغلاق لشدة الغضب؛ كما في قصة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين ألقى الألواح.

٢) شدة الفرح؛ كما في حديث الذي قال: (اللهم أنت عبدي وانا ربك)؛ فأخطأ لشدة فرحه!

٣) شدة الخوف؛ كما في حديث الذي أوصى بحرقه، وسحقه؛ لئلا يبعث؛ خوفاً من الله تعالى، فغفر له مع شكه!

فتأمل هذه المسالك من الإشفاق والتيسير، التي تنأى بالأمة عن مهاوي الإشقاق والتكفير.



٢٦- الجهاد بالقرآن

قوله تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾

آية عظيمة تحض علىٰ الجهاد بالقرآن.

والجهاد في أصله جهادان:

١- جهاد بالسيف والسنان؛ لحماية الإيمان.

٢- جهاد بالحجة بالبرهان، ويكون بالقرآن.

والثاني أعظم لكونه غاية، والأول وسيلة له؛ ولذلك يبقىٰ الثاني لا يتخلف عن الأرض، وهو من معاني قوله تعالىٰ: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

بخلاف الأول فسنته الكونية: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ .

وقد بين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أن المعركة الكبرىٰ في القرآن ستكون حول تأويله: بتحريف عقائده وأحكامه وأخلاقه، ومحاولة طمس هداياته وأنواره، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في حديث عظيم بإسناد صحيح: («إنَّ منكم مَن يُقاتِلُ علىٰ تَأْويلِه، كما قاتَلتُ علىٰ تَنزيلِه»، فقام أبو بكرٍ، وعمرُ فقال:

«لا، ولكنَّه خاصِفُ النَّعلِ»، وعليٌّ يَخصِفُ نَعلَه)، فوقعت نبوءته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقاتل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخوارج والرافضة على تحريفه.

وهذا تصديق قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يحمِلُ هذا العِلمَ من كلِّ خلَفٍ عدولُه ينفونَ عنهُ تحريفَ الجاهِلينَ، وانتحالَ المبطلينَ، وتأويلَ الغالينَ).

وأما إنكار أصل تنزيله فقد غدا أجنبيا عن العقول، شاذاً في الواقع، بعد وجود نسخه في متاحفهم، وظهور حججه في اكتشافاتهم ونظرياتهم ومعارفهم.



٢٧- خلود السنة

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾

آيــة عظيمة بــدأت بالتوكيد لشــأن عظيم، وهو نصــرة الله جل في عــلاه لنبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقطعــه دابر كل كاره لــه أثيم، فهي ثلج يقيــن، تحمل القلب علــىٰ التوثق بأمريــن جليلين:

الأول: بمنطوقهــا: الاستبشــار كلمــا ظهر البغــض والتعدي علــىٰ جنــاب النبــي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بقرب البــتر لشــره، والقطع لضــرره: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾.

الثــاني: بمفهومهــا: الطمأنينــة بظهــور دينــه، ورفعــة محبيه، وانتشــار أمرهم، ودوام أثرهم: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾.

والآية يشــهد لصدقها التاريخ والواقــع، ولا يخلف الله وعده، ومن أصدق مــن الله قيلا !



٢٨- أبنية الدعوة

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾.

حتىٰ يستوي الداعية علىٰ سوقه، ويكون له الأثر بعد فضل الله تعالىٰ وتوفيقه؛ لا بد له من خمسة أبنية، تدل عليها الآية إما تصريحًا أو تلويحًا، ضمنا أو التزامًا، وهي:

١- البناء الإيماني: الذي يعصمه من الشهوات، بثلاثية:

المال، والجاه، والنساء.

٢- البناء العلمي: الذي يحقق له البينات، ويصد عنه الشبهات، بثلاثية:

التأويل للنصوص، والتأصيل للقواعد، والتنزيل علىٰ الوقائع.

٣- البناء القرآني: وهو أصل الاهتداء؛ بثلاثية:

إتقان التلاوة، والفهم، والعمل.

٤- البناء الأخلاقي: وهو واجهة البناء، ومحط الاقتداء، وأقصر سبل العطاء، بثلاثية:

سلامة الجنان، وطيب اللسان، وبذل الإحسان.

٥- البنـاء الأسـلوبي: وهـو مغـراف إيمـان القلـب، وعلم العقـل، وخلـق النفـس، فإمـا أن يزينه أو يشـينه، وهـو بثلاثية: الأسـلوب العلمـي، والأسـلوب الوعظـي، والأسـلوب الفكـري.

كمـا في آيـة الدعـوة: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾، والله الموفـق.



٢٩- رفق المعلم

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾:

هذه الآيات العظيمة بعتابها الرفيق، وتوجيهها اللطيف، تصور حال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين تلهىٰ عن الأعمىٰ، مع أنه كان لاعتقاد مصلحة دينية، وهي دعوة صناديد الكفر، وفي ذلك تحذير لمن يتلهىٰ عن ملتمس الهدىٰ، لغير ذلك الترجيح من باب أولىٰ!

وهي رسالة للمفتين والمعلمين والمربين، الذين يضجرون من سائليهم، أو يضيقون ذرعًا بحوارهم، أو يأنفون من إجابتهم، أو يسفّهون رأيهم، أو يقدمون مصالحهم الخاصة علىٰ عمومهم.

مع أن المنة لله تعالىٰ حين خصكم بشيء ليس عندهم، ثم التفضل لهم حين وثقوا بكم، وقدموا عقولهم الواعية بين أيديكم، وفتحوا قلوبهم الزاكية لاستقبال ما لديكم.

وتذكروا قول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إن الله حَرُم علىٰ النارِ كلُّ هيِّنٍ لينٍ سهلٍ قريبٍ من الناسِ).

ولا مزيد علىٰ هذا الفضل العظيم!

٣٠- دار السلام

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥]

هذا الاسم من أعظم أسماء الجنة، ففيه جملة من الدلالات، وهي أقوال لأئمتنا الثقات، ومنها:

١- أن السلام هو اسمه تعالىٰ، وأضاف الدار إليه؛ تشريفًا لها، وتعظيمًا.

٢- ومنها: أنه سلّمهم من الظلم، والعذاب.

٣- ومنها: أن من معاني السلام: السلامة من الفناء؛ دلالة علىٰ النعيم المقيم.

٤- ومنها: أنه يسلّم عباده، ويؤمّنهم، فلا خوف عليهم، ولا هم يحزنون.

٥- ومنها: أنه سبحانه يسلّم عليهم فيها: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ﴾.

٦- ومنها: أن الملائكة تسلّم عليهم: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾.

٧- ومنها: أن تحيتهم فيها سلام.

٨- ومنها: أنهم سالمون فيها من الآفات والكروب، والأمراض واللغوب.

٩- ومنها: أنه لا يدخلها إلا من سلم من الشرك والكفر.

١٠- ومنها: أن أهلها هم أهل الطمأنينة والأمان: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾.

وكلها معان تأتلف ولا تختلف.

ومن الفأل الحسن أن نختم هذه المجموعة بدار السلام، كما ختمنا المجموعة الأولىٰ باسم الله: «السلام».

والحمد لله علىٰ البدء والختام



الفهرس

